اسباب الاحتلال البريطاني

(٥)

بدأ لورد كرومر الفصل الحادي عشر من كتابهِ بكلام قالهُ السرجون برونغ سنة سنة ١٨٤٠ ومفادهُ ان السلطة في القطر المصري بيد الاتراك ولو كان عددهم قليلاً . ثم قال ان الامر بقي كذلك الى سنة ١٨٨١ ولو زاد عدد المصريين في مناصب الحكومة وكانت الزيادة كثيرة في ضباط الجيش حتى ضعف شأن البقية الباقية من الاتراك والشراكسة

ثم ان كثيرين من الضباط الذين احيلوا على الاستيداع سنة ١٨٧٨ كانوا مصريين فملت الشكوى من هذا التبديل وزادت لان المساعي التي بُذلت لاصلاح شؤون الادارة لم يبذل شيءٌ منها لاصلاح شأن الجنود وضباطهم فاعربوا عن شكواهم بعريضة رفعها اثنان منهم الى رياض باشا في ٥ يناير سنة ١٨٨١

وكان بين الضباط الشاكين رجل اسمهُ احمد عرابي كان امير الالاي الرابع من المشاة فتصدَّر في هذه الحركة ولكن المحرك الاول لكتابة العريضة كان الامير الاي علي بك فهمي وكانت اورطتهُ مرموقة بعين الرضا الخاص من الجناب الخديوي وكان لها حراسة سراي عابدين ولكن فترت مودة الخديوي لهُ قبل ذلك . واهالي مصر يحسبون ان كل تقرحجة رئيسٍ لهُ فهو في خطر مبين ولذلك اخذ علي بك فهمي يهتم بتعضيد مركزهِ لجاهر انهُ مضى الزمن الذي كان الضباط المصريون يعاملون فيهِ سوء المعاملة ويرقون او ينفون من غير ان يسأل احد عنهم واستخدم هذه الجاهرة لتعضيد مركزهِ

ومدار العريضة المشار اليها آنفاً على الشكوى من ناظر الحربية عثمان باشا رفقي لانهُ ظلم الضباط المصريين في امر الترقي لعاملهم كأنهم اعداؤهُ او كأن الله ارسلهُ لينتقم من المصريين . وكان بعض الضباط قد رُقيوا من غير تحقيق قانوني فطلب متقدما العريضة امرين الاول عزل ناظر الحربية لانهُ غير اهل لهذا المنصب والثاني البحث عن استحقاق الذين تُرقوا من الضباط لانهُ لا شيءَ يجب ان يؤهل الضابط للترقي الاَّ علمهُ واستحقاقهُ . قالوا ونحن من هذا القبيل احق بالترقي من الذين تُرقوا . وكان رياض باشا يجهل نظام العسكرية فحاول ان يقنع الذين قدماها لهُ ليسترجعاها ووعدهما بانهُ يحقق الشكاوي المذكورة فيها وامهلهما اسبوعين في استردادها . وعرف الضباط ان الخديوي والاتراك الذين يحيطون بهِ نظروا الى

العريضة بعين السخط وأخبر رياض باشا ان تهاونهُ بهذه المسألة اوقع الشك في نفس الخديوي من قبلهِ ولذلك رأى ان لا بد لهُ من الفصل فيها فعرضها على مجلس النظار الذي التأم برئاسة الخديوي في ٣٠ يناير وقد منع السر اكلند كولڤن والمسيو ده بلير من حضور تلك الجلسة وهذا عين الخطإ . فرفض المجلس اجابة طلب الضباط رفضاً باتاً واجمع على محاكمة ثلاثة منهم في مجلس عسكري وهم الامير الاي محمد بك عرابي والامير الاي علي بك فهمي والامير الاي عبد العال بك ثم ينظر في شكاويهم وصدر الامر بذلك وبموجبهِ دعي الضباط الثلاثة الى نظارة الحربيَّة في اول فبراير

ومن مزايا الحكومة المصرية انهُ لا يكتم فيها سرٌّ قبلغ الضباط ما قرَّ عليهِ مجلس النظار فديروا التدابير اللازمة ومفادها انهُ اذا لم يرجع الضباط من نظارة الحربية بعد ساعتين من ذهابهم اليها فالاياتهم تهجم وتقتحم بالقوة وأرسلت الاخبار الى الالاي المقيم في طره ليكون على استعداد

ودعي الضباط الثلاثة الى نظارة الحربيَّة بدعوى النظر في الاحتفال الذي يراد اقامتهُ لزواج احدى الاميرات فحضروا ولما وصلوا اوقفوا وابتدأت محاكمتهم وبينما كانت المحاكمة جارية هجمت الجنود على نظارة الحربيَّة ودخل ضباطهم الغرفة التي فيها المجلس العسكري واهانوا ناظر الحربيَّة واتلفوا الاثاث وانقذوا ضباطهم وساروا بانتظام الى سراي عابدين وطلبوا من الخديوي ان يعزل ناظر الحربيَّة فاجتمع النظار حالاً حول الخديوي هم وبعض كبار الموظفين واشار بعضهم بمقاومة القوة بالقوة ولكن كانت روح التمرُّد قد انتشرت في الجيش كلهِ الاَّ في الالاي المقيم في العباسية ولذلك فمقاومة القوة بالقوة ضرب من المحال . فاستدعى الخديوي اولئك الضباط واخبرهم انهُ عزل عثمان باشا رفقي وعين محمود باشا البارودي ناظرًا للحربية بدلاً منهُ . فسرُّوا بهذا التعيين وانصرف الجنود وسادت السكينة وتُرك الضباط في مناصبهم فطلبوا مقابلة الخديوي وطلبوا منهُ العفو عمَّا صدر منهم واكدوا لهُ صدق ولائهم نعما عنهم

هذا هو التمرُّد الثاني وقد نشأ كما نشأ التمرُّد الاول من شكاوى صحيحة لم يلتفت اليها. والظاهر ان الخديوي نفسهُ مسؤول عما جرى من سوء التدبير فانهُ كان يجب عليهِ اما ان يضم اليهِ قوة تكفي لسحق المتمردين واما ان يراضي الضباط قبلما يلجأون الى التمرد ولكنهُ لم يفعل هذا ولا ذاك . اما الاسلوب الذي جرى عليهِ وهو خدع الضباط وقصاصهم من غير قوة يعتمد عليها في اجراء مقاصدهِ فابعد الاساليب عن الصواب

ورسخ في عقول الضباط والجنود حينئذٍ انهم ينالون كل ما يطلبونهُ اذا طلبوهُ بعزيمة ولا يردوا وثاروا وهذا هيأهم للتمرد الثالث. وظهر حينئذٍ كأن ثورة الافكار خمدت ولكن النار كانت مخبوءة تحت الرماد من الطرفين فالخديوي ونظارهُ كانوا يخافون ان يحملوا الالايات التي اظهرت روح التمرد او ان يبعدوها عن العاصمة والضباط كانوا يخافون سوء العاقبة ولو ظهر ان الفوز كان لهم حينئذٍ فانهم كانوا يعتقدون ان الخديوي يغتنم اول فرصة لمعاقبتهم. وكانت نقمتهم على رياض باشا اشد من نقمتهم على الخديوي واخذوا يسعون في قلب الوزارة بالدسائس وساعدهم البارون دي رنج قنصل فرنسا الجنرال في سعيهم هذا فزاد حرج الموقف وطلب رياض باشا ان يعفى من منصبهِ ولكنهُ أقنع بالبقاء فيهِ. واخيراً كتب الخديوي الى رئيس الجمهورية الفرنسوية يشكر من تصرف البارون دي رنج فاستدعتهُ حكومتهُ من مصر. واستدعى الخديوي كبار الضباط واعرب لهم عن ثقتهِ برياض باشا واثنى عليهِ ثناءً كثيراً. وكانت رواتب الضباط والمستودعين قد زيدت واعلن الخديوي انهُ من ذلك الوقت فصاعداً تكون معاملة الضباط كلهم على طريقة واحدة سواءٌ كانوا من الاتراك او الشراكسة او المصريين

فهذه الوسائل اصلحت مركز الوزارة ولكن الضباط لم يأمنوا جانبها لانهم لم ينسوا عهد اسمعيل باشا. وزاد الخلل يوماً فيوماً فشُكِّلت لجنة للنظر في شكاوي الجيش وكان عرابي من اعضائها فتكلَّم ناظر الحربية كلاماً ثقيلاً

وفي شهر يوليو صدمت مركبة رجلاً من رجال المدفعية في احد شوارع الاسكندرية وقتلتهُ فحملهُ رفاقهُ الى سراي الخديوي ودخلوها عنوة فحوكموا وحكم على زعمائهم. وفي غير ذلك الوقت اشتكى تسعة عشر ضابطاً من الاميرالاي عبد العال فحققت الشكوى ووجدت باطلة فرفت الضباط من الخدمة فكلم الخديوي ردهم الى مناصبهم فاستاء امراء الالايات من ردهم وقالوا ان الخديوي قصد بذلك ان يضعف سلطتنا على الضباط الذين تحتنا. ثم عزل الخديوي ناظر الحربية محمود باشا البارودي وعين داود باشا بدلاً منهُ فاغتاظ الضباط من ذلك. ولم يكن اعضاء النظارة على اتم الوفاق بعضهم مع بعض ووقع الخلاف بين رياض باشا والمسيو دوبلتير وشاع ان الخديوي عازم على اعفاء رياض باشا وتنصيب شريف باشا بدلاً منهُ الاَّ ان رياض باشا كان واثقاً ان الامور كلها جارية على ما يرام

قال السر ادورد ملت ان الخديوي والنظار كانوا يحسبون ان الامور كلها جارية على ما يرام وشاع حينئذٍ ان الخديوي استفتى شيخ الاسلام في قتل الضباط لانهم خانوهُ وفي اشاعة كاذبة لا اصل لها ولكن الناس صدقوها وجعلت شيخ الاسلام في مركز حرج

ويقال ان الجواسيس كانوا مشوشين حول بيوت امراء الالايات وفي ٨ سبتمبر اتى رجل الى بيت عرابي وطلب الدخول اليهِ فلم يأذن لهُ ثم ظهر انهُ ذهب الى المحافظة فرسخ في عقل عرابي ان المراد اغتيالهُ فذهب الى رفيقيهِ فوجد انهما في خوف من الاغتيال مثلهُ

وفي اليوم التالي أمر الالاي الثالث بمغادرة القاهرة الى الاسكندرية فثار الجنود وجاء عرابي بالفين وخمس مئة من رجالهِ و١٨ مدفعاً الى ساحة عابدين وكان الخديوي في سراي الاسمعيلية فاستدعى السر اكلند كولفن اليهِ واخبرهُ بواقعة الحال واستشارهُ في ما يفعل فقال السر اكلند اني اشرت عليهِ ان يستدعي الالايين الذين قال رياض باشا انهما باقيان على ولائهِ ويجمع كل قوة البوليس التي يمكن جمعها ويحضر بالجميع الى سراي عابدين ويقبض على عرابي فقال لي ان الطوبجية والفرسان مع عرابي ومن المحتمل انهُ يأمرهم باطلاق النار. فقلت لهُ ان عرابي لا يتجاسر على ذلك وانهُ اذا استطاع ان يفعل كما قلت لهُ فالمرجح انهُ يقمع هذه الثورة حالاً والاَّ تقضي الامر . وكان ستون باشا حاضراً فصادق على ما قلتهُ وحضر السر تشارلس كوكسن فوافق على ما قلتهُ ايضاً ثم عاد الى الوكالة البريطانية وارسل تلغرافاً بما حدث الى الحكومة الانكليزية. وتبعت الخديوي انا والنظار وخمسة او ستة من الضباط المصريين وستون باشا فذهبنا اولاً الى قشلاق عابدين فخلف الالاي الذي فيهِ بين الطاعة ثم سرنا الى القلعة ورأينا الالاي الذي فيها وبلغنا انهُ كان يتخابر مع الالاي الذي في العباسية بالاشارات وهو الالاي عرابي وذلك الخديوي انهُ عازم على الذهاب الى العباسية فحثثتهُ على العودة الى عابدين بالالاي الذي في القلعة لكنهُ فضَّل الذهاب الى العباسية اولاً ففعل ووجدنا ان عرابي كان قد سار بالايهِ فعاد الخديوي الى سراي عابدين ودخلها من باب جانبي . ولما وصلنا نزلتُ من مركبتي وحثثتهُ لكي لا يدخل السراي بل يذهب الى الساحة ثم يفعل ومشينا الى الساحة ووراءنا اربعة او خمسة من الضباط الوطنيين وستون باشا وضابط او اثنان من الضباط الاوربيين وكانت الجنود قد اصطفت في الساحة كلها فمشى الخديوي بتقدم راكبة الى جماعة من الضباط كانوا في وسطها بعضهم مشاة وبعضهم فرسان فقلت لهُ مر عرابي حينما يقف بين يديك ان يعطيك سيفهُ ثم مرَّ على الجنود وكلَّم كل الاي على حدتهِ ومرَّهُ بالانصراف. وتقدم عرابي من الخديوي وهو على ظهر جوادهِ فامرهُ الخديوي ان يترجَّل عنهُ فترجَّل ودنا من الخديوي ماشياً ومعهُ غيرهُ من الضباط وحرس حرابهُ في بنادقهِ وسلَّم فقلت للخديوي الآن هي الفرصة المناسبة فقال ان الشر تحيط بنا من الجهات الاربع فقلت لهُ تشجَّع . فكلَّم ضابطاً وطنيًّا واقفاً الى يسارهِ ثم قال لي ماذا افعل فانا

بين اربع نيران فيقتلونا . لكنهُ امر عرابي ان يتمهد سيفهُ فاطاع امرهُ فسألهُ ما معنى هذا العمل فاجاب ان الجيش جاء الى هنا باسم الشعب المصري طالباً ثلاثة امور ولا ينصرف الاَّ بعد الحصول عليها . فالتفت الخديوي اليَّ وقال اسمع ماذا يقول . فقلتُ لهُ لا يليق بخديوي مصر ان يبحث مع ضباط جيشهِ في هذه المسائل . واشرت عليهِ أن يرجع الى السراي ويتركني لاكلمهم فعل وبقيت اتاسع الضباط نحو ساعة الى ان وصل السر تشارلس كوكسن وبيَّن لهم خطارة الموقف الذي هم فيهِ وحثهم على الرجوع بجنودهم قبل فوات الفرصة "

اما المطالب الثلاثة التي اشار اليها السر اكتند كوتن فهي اولاً عزل الوزارة الحاضرة وثانياً منح البلاد مجلس نواب وثالثاً زيادة عدد الجيش حتى يبلغ ١٨٠٠٠

وبعد الاخذ والرد وافق الخديوي على عزل الوزارة ومنح الطلبين الآخرين اذا وافق الباب العالي على ذلك . فرضي عرابي ووقع اختلاف على من يعين رئيساً للنظار فان الخديوي ذكر اسماً او اسمين فلم يوافق عرابي ورفائهُ عليها واخيراً قال الخديوي انهُ يعين شريف باشا فوافق الجميع على ذلك وصرخ الجنود ليعش افندينا وطلب عرابي ان يؤذن لهُ في مقابلة الخديوي واظهار طاعتهِ لهُ فاذن لهُ ولسائر امراء الالايات في ذلك وعاد الجنود الى تشلاقاتهم على تمام الانتظام

ولم يكن اقناع شريف باشا بقبول الوزارة بالامر السهل لانهُ قال انهُ لا يقبل وزارة دعاهُ اليها جند متمرد واجتهد السر تشارلس كوكسن والمسيو مينكفتس (قنصل فرنسا الجنرال) والسر اكتند كوتن حتى اقنعوهُ بقبول الوزارة ولكنهُ اشترط اولاً ان تذهب الآلايات الى الاماكن التي أُمرت بالذهاب اليها فرفض الضباط ذلك ورفض شريف باشا تشكيل الوزارة

وكان عرابي قد استدعى اعضاء مجلس الاعيان فلما حضروا الى العاصمة مشوا الى شريف باشا وتوسلوا اليهِ ان يقبل الوزارة وهم يضمنون لهُ ان الجنود تطيع اوامرهُ طاعة تامة . لهذا ادعش الضباط واضطرَّ عرابي ورفائهُ أن يظهروا الخضوع التام لشريف باشا مشترطين شرطين فقط وهما ارجاع محمود باشا سامي الى منصبهِ واجراء القانون العسكري الذي اقرَّت عليهِ اللجنة حديثاً . ولم يقبل شريف باشا بهذين الشرطين الاَّ بعد عناء كثير وحفظ لنفسهِ الحق بان يزيد عدد الجيش الى ١٨ الفاً او لا يزيدهُ